تربية

ميرنا الشدياق

الأزمة تعمّق اللامساواة: أغنياء وفقراء جدد في لبنان وطبقة وسطى فقدت القدرة على المواجهة وفئات إغتنت

يشهد لبنان منذ عام 2019 انهيارا اقتصاديا صنفه البنك الدولي من بين الاسوأ في العالم. وقد خسرت الليرة اللبنانية اكثر من 98 في المئة من قيمتها، وباتت غالبية السكان تحت خط الفقر على وقع قيود مصرفية مشددة وازمة سيولة حادة، في ظل غياب المعالجات الجدية والاستمرار في سياسة الهروب الى الامام

"مصائب قوم عند قوم فوائد"، مثل يختصر نتائج الازمة الاقتصادية على الطبقات الاجتماعية في لبنان. اغنياء اصبحوا فقراء، وفقراء اصبحوا اكثر عوزا وحاجة، فيما انحدرت الطبقة الوسطى الى آخر درجات السلم الاجتماعي، وظهرت طبقة جديدة استغلت الازمة وباتت تعرف بطبقة الاغنياء الجدد.

هذا الواقع اشار اليه بوضوح، تقرير المرصد الاقتصادي للبنان ربيع عام 2023 حمل عنوان "التطبيع مع الازمة ليس طريقا للاستقرار"، لافتا الى ان "صناعة السياسات في وضعها الراهن تتسم بقرارات مجزأة وغير مناسبة لادارة الازمة، مقوضة لأي خطة شاملة ومنصفة، مما يؤدي الى استنزاف رأس المال بجميع اوجهه، لاسيما البشري والاجتماعي، ويفسح المجال امام تعميق عدم المساواة الاجتماعية، بحيث يبرز عدد قليل فقط من الفائزين وغالبية من الخاسرين. فكم من مواطن لبناني اجبر على ان يبيع اصوله وسياراته ومجوهراته وعقاراته، وحتى امواله عبر شيكات مخصومة اقل بكثير من قيمتها الفعلية. ما يدفع كل مراقب الى التركيز على من اشترى واستثمر واستفاد في ظل اسوأ ازمة اقتصادية واجتماعية. فالاموال في النهاية لم تتبخر بل انتقلت من يد الى اخرى".

الاغنياء الجدد يتوزعون بين فئات عدة في المجتمع، بين تجار وصرافين ومصرفيين ومهربين. اما ابرز الفقراء الجدد، فهم فقراء الطبقة الوسطى الذين استفاقوا ليجدوا انفسهم فقراء، من دون ان يعرفوا السبب ومن دون ان يملكوا القدرة على المواجهة.

فكيف يفسر علم الاجتماع السلوك الانساني في الازمات، واستغلال بعض فئات المجتمع الوضع المستجد لتحقيق مكاسب على حساب فئات اخرى؟

للاضاءة على هذا الواقع، اجرت "الامن العام" حوارا مع الاستاذ الجامعي والباحث في السلوك الاجتماعي الدكتور مأمون طربيه، شرح فيه حالة اللامساواة التي يعيشها المجتمع اللبناني منذ بدء الازمة.

■ التفاوت الاجتماعي في المجتمع اللبناني بات واضحا، اغنياء اصبحوا فقراء والعكس صحيح وهناك فقراء واغنياء جدد، فما الذي ادى الى هذه الظاهرة؟

□ نتحدث في هذه الحالة عن اللامساواة بين افراد المجتمع اللبناني، وهو مفهوم يقيسه الباحثون في علم الاجتماع تبعا لما يملكه الافراد والجماعات من اصول اقتصادية. وبقدر ما يمتلك الفرد من اصول او ممتلكات او ثروات، بقدر ما يرتقي في السلم الاجتماعي ويظهر عليه نوع من الرفاه. يحدث ايضا العكس تماما، فبقدر عدم امتلاك الفرد للاصول، بقدر ما ينحدر الى مستوى الطبقات الدنيا. في تعريف الازمة، اي طارئ يحصل في مسار حياة معينة قد يكون في نطاق اقتصادي او اجتماعي او تربوي. ويحدث خلال هذه الحياة تحوّل اما من سيئ الى اسوأ او من سيئ الى احسن. وبالتالي، هناك من يخسر في الازمات اصولا لينتقل من وضع الى آخر. مثال على ذلك في لبنان، مواطن متقاعد كان راتبه كمدير عام جيدا، ثم وضع امواله في المصرف الا انها باتت محجوزة اليوم، فانتقل من انسان كان يحظى بمكانة اجتماعية معينة الى انسان بالكاد يمارس حياته بشكل معين.

■ ما الذي حصل في المجتمع اللبناني اليوم بسبب هذه الازمة، وما الذي يدفع اي انسان الى استغلال فئات معينة لجني ارباح؟

□ هناك اشخاص يتقنون جيدا استغلال الازمات ويحاولون التكيف معها ويقومون في ظلها باعمال تعود بالمنفعة عليهم. ففي الازمات، لا يطبق القانون بشكل فعال عندها يمارس بعض الاشخاص اعمالا غير مشروعة تدر عليهم اموالا طائلة. مثلا، اذا كان هناك ازمة امنية في بلد معين، يستغلها عدد من الاشخاص لادراكهم ان جماعات تحتاج الى السلاح مثلا، فيبدأون في العمل بتجارة السلاح، على ان يكون هدفهم الاساسي هو جني الارباح. نحن كباحثين في علم الاجتماع، نراقب طريقة تغير نمط حياة اشخاص معينين واسلوب حياتهم. كما نعمل على اكتشاف مصدر الموارد الاقتصادية التي بنوا على اساسها قوتهم وطريقة عيشهم. فهم يستغلون كما قلت ازمة معينة كاللعب بالعملات الصعبة مثلا، واجراء صفقات مع جهات حكومية لادارة موارد معينة. واحيانا يستثمرون ممتلكات عائدة للدولة ولبلديات بأسعار زهيدة ويجنون اموالا، منها على سبيل المثال المسابح الشعبية على طول الشاطئ اللبناني. كذلك لمسنا في الفترة الاخيرة في لبنان وجود ظواهر غير قانونية كالتجارة في الممنوعات وتجارة البشر وفتح شركات وهمية، اضافة الى جرائم قرصنة ارصدة تتم عبر القارات من خلال ابتكار ما يسمى بشركات قد تكون وهمية. كثر يقعون في شباك هؤلاء الذين ينتقلون الى وضع حياتي واجتماعي افضل.

■ اخلاقيا، كيف يمكن وصف هؤلاء الذين يستفيدون من الازمات لجني الثروات؟

□ نصفهم بالبرجوازيين الجدد اي الذين لم يملكوا يوما اصولا تاريخية بثروة ما، مما يعني انهم لم يرثوا من آبائهم ممتلكات طائلة، لكن ازدادت ممتلكاتهم فجأة. الا ان عملهم بالممنوع او المرفوض والقيام باعمال غير قانونية، يخولانهما احيانا جني ثروات هائلة، فيدخلون حينها في عالم تبييض الاموال لاخفاء مصدر ثروتهم الحقيقي.

■ ما تأثير هذه الازمة على الفقراء؟

□ يتدرج الترتيب الاجتماعي في اي مجتمع بشكل هرمي. قليلة هي الفئة التي تمتلك ثروات وتشكل رأس الهرم، فيما تتكون القاعدة عادة من الفئات المستضعفة، ونادرا ما ينتقل اشخاص منها الى رأس الهرم. لكن عددا كبيرا ينتقل من الرأس الى القاعدة نتيجة ازمة او انتكاسة. المودعون هم المثل الحي عن ذلك، بعدما فقدوا فجأة ثروتهم بعد ان كانوا يملكون اصولا في المصارف. من المؤكد ان الاشخاص الذي لا يملكون شيئا، اصبحوا في هذه الازمة من المهمشين الذين يعيشون على هامش المجتمع نتيجة البطالة او بسبب اوضاع صحية وعدم القدرة على الحصول على اموال للمعالجة.

■ كيف يمكن وصف المجتمع اللبناني في ظل الازمة؟

□ نلاحظ تفاوتا اجتماعيا حادا بين الطبقات، وهي ظاهرة موجودة في مجتمعات عديدة. نظريا، توجد 3 طبقات في اي مجتمع: طبقة

الاستاذ الجامعي والباحث في السلوك الاجتماعي الدكتور مأمون طربيه.

> **الطبقة الوسطى اختفت وانحدرت الى طبقة الفقراء لتشكل بين 50 و60%**

الاغنياء بنسبة 5 الى 10 في المئة يتسلمون السلطة، وهم اصحاب نفوذ وبرجوازيون يملكون استثمارات ضخمة. الطبقة الوسطى التي تكون عادة الشريحة الاوسع وتشكل ما نسبته من 40 الى 50 في المئة من المجتمع. واخيرا، طبقة المشردين والفقراء. في الواقع الملموس، اختفت الطبقة الوسطى في لبنان وانحدرت الى طبقة الفقراء لتشكل ما نسبته 50 و60 في المئة نتيجة ازمات متتالية تعرض لها المجتمع اللبناني. فعليا، ان الازمات السياسية انعكست على الازمات الاقتصادية وسببت ازمات مالية انعكست تاليا على الواقع الاجتماعي. مثال بسيط، انا كموظف في دائرة معينة كنت املك ضمانا صحيا كاملا، اليوم فقدت هذه التغطية بسبب هذه الازمة مما انعكس على وضعي الصحي والاجتماعي.

■ ما هو تأثير اختفاء الطبقة الوسطى في لبنان؟

□ الطبقة الوسطى هي المحرك، كما هي سبب التوازن في اي مجتمع حتى لا يتحول الى مجتمع فقير جدا، اذ انه من الممكن مع وجود هذه الطبقة ان يتحسن الوضع الى الافضل. مثال على ذلك، الموظف الذي كان يملك القدرة على تدريس ابنه او ابنته اختصاص الطب، فعندما يتخصص كطبيب ويبدأ العمل سينتقل حتما الى الطبقة العليا ويصبح انسانا نخبويا في المجتمع. الا انه عندما ينحدر عمليا من الطبقة الوسطى الى الطبقة الفقيرة، لن يعود في استطاعته تدريس ابنه الطب مثلا، مما ينعكس سلبا على مستوى الانتاجية وتحسين حياة الناس وعلى كل النواحي في المجتمع. نحن نعلم اليوم ان الاسرة اللبنانية قد اعادت ترتيب نفقاتها، كالتخلي مثلا عن استقدام عاملة اجنبية او الغاء الميزانية المخصصة للرفاهية واجازات السفر. حتى ان شد الاحزمة طاول النفقات على التأمين الصحي، في ظل عدم القدرة على توفير الاقساط الشهرية.

■ الى اين يتجه المجتمع اللبناني؟

□ لا شك في ان هناك تقاطعا في اكثر من مسألة. فالوضع الاقتصادي يتأثر بالوضع السياسي المرتبط ايضا بالوضع الامني والى آخره. الا ان لبنان، بحسب التجارب، يمر بين فترة واخرى بخضات وازمات ومن ثم ينتعش. هذه الخضات قد تطول او قد تقصر، لكن المشكلة الاساسية هي في مدى ايمان اللبنانيين بوطنهم. اذ انني اعتقد ان رأس مال الاوطان بابنائها وليس بثرواتها، مما يدفعني الى ان اسأل اليوم اين هي الكفايات اللبنانية؟ للاسف هي في الخارج بعد ان فقدت الامل. في العام 2022 هاجر 2500 طبيب من لبنان الى الخارج، منهم 700 طبيب من الجامعة اللبنانية. وبالتالي تأثر المستوى التعليمي في الجامعة اللبنانية، كما تأثر المستوى الصحي في مستشفياتنا لأن نخبة الاطباء غادرت (مع احترامنا للموجودين) مما انعكس سلبا على المستوى الصحي. قد يكون هناك باب نور، الا انه مرهون بالطبقة السياسية وبالسياسات المتبعة.